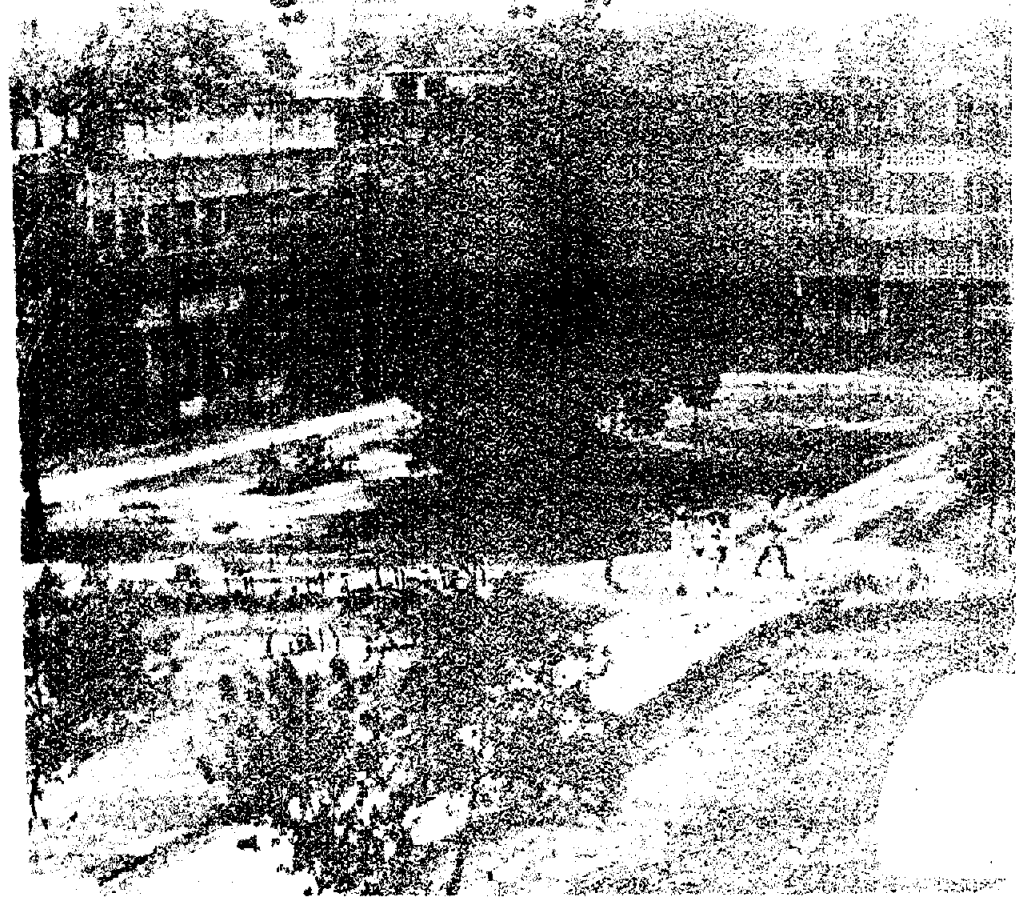


الاسلام في الهند

دور المسلمين القيادي والاجتماعي



ابو الحسن علي بن ابي الندي

دور المسلمين القيادي والاجتهادي في الهند

الناشر :

الامانة العامة لندوة العلماء

لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الرسالة

أخذت في رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد الأنبياء
و المرسلين محمد و على آله و أصحابه و على من تبعهم باحسان
إلى يوم الدين .

و بعد - فهذه الرسالة هي في الواقع كلمة ترحيب و ترحيب
أفتح بها سماحة أستاذنا الكبير و مرينا الجليل مولانا الشيخ أبي الحسن
على الحسن الندوي المهرجان التلمبي لندوة العلماء، و هو الذي تولى
إقامته بمناسبة مرور ٨٥ سنة على هذه المؤسسة الإسلامية الكبرى
وذلك في ٢٥ - ٢٨ شوال عام ١٣٩٥ هـ المصادف ٣١ أكتوبر
و ١ / ٢ / ٣ نوفمبر عام ١٩٧٥ م ، و تلك هي الكلمة الضافية التي
رحب بها أعضاء الوفود الموقرين و المندوبين الذين حضروا المهرجان
و مثلوا المراكز الإسلامية الحساسة في العالم الإسلامي .



مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

و إن هذه الرسالة القيمة تلقى ضوءاً لامعاً على تاريخ الهند
العلمي والفكري وأدوار التعليم والتربية وتجاربها التي مرت
بها هذه البلاد عبر تاريخها الإسلامي الطويل، وهي عبارة دراسة
تاريخية طويلة وخلاصة أسفار ضخمة لا تيسر إلا بعد تدقيق في الكتب
ومراجع التاريخ .

وهي تتحدث عن الموضوع في ضوء التحليل العلمي والدراسة
التاريخية وتكشف الستر عن كثير من الجبايا التي لا يطلع عليها
إلا من تعمق في دراسة تاريخ هذه البلاد الإسلامي وما قام به
المسلمون فيها من نشاط علمي وفكري وسياسي، وما أدوه من
خدمات جليلة في حقل العلوم الإسلامية والدراسات الشرعية،
والبحوث الأكاديمية، والجهود التربوية، والنضال السياسي .

و تتحدث بصفة خاصة عن الحركة العلمية والدينية والأدبية
الحديثة التي اشتهرت بها الهند، وخاصة علوم الحديث والفقه
والتاريخ والسيرة، والأصول، وعن الدور العالمي الذي قاده
علماء هذه البلاد في الكفاح ضد الاستعمار الإنجليزي، لجمعوا
بذلك بين الحسينيين وحلوا على عواتقهم مسؤولية العلم والدعوة
والقيادة والتوجيه .

وقد كان ذلك المهرجان التعليمي خطوة جريئة نحو بعث
تعليمي تربيوي جديد ونواة كبيرة في مجال النظام التعليمي الموحد
الذي يتوخى الجمع بين النظامين التعليميين المتعارضين ويهدف
بناء نظام تعليمي جديد يحوز حسناتها، فيتكفل تخريج الأجيال
المطالبة اليوم في كل مجال من مجالات الخدمة والدعوة والتوجيه،
و ينال هذا النظام الجديد للتعليم والتربية القبول والتنفيذ في جميع
أوساط التعليم والجامعات الكبرى والمدارس والمعاهد في
الأقطار الإسلامية .

ولا شك فإن نموه العلماء قامت - عن طريق هذا
المهرجان - بإعداد التربة الصالحة لزرع فكرة هذا التطوير الصالح
في المناهج التعليمية وتغييرها بما هو الإصلاح الآتوم، وأوفق
للظروف المتغيرة، وإنها أكدت لمثلي التعليم والتربية والمسؤولين
هنا في الدول الإسلامية أن هذه الحاجة المهمة لا تحتمل تأخير
يوم واحد، وإذا لم نولها اليوم من الأهمية والاهتمام ما هو
حقها فإن نمبر مخلصين لأنفسنا ولا لأجيالنا ولا لوينا أيضاً، بل
سنكون مسؤولين أمام الضمير قبل كل شئ ما دنا قادرين على أن
نقوم بواجبنا نحو ذلك ثم لم نعم .

مدير ندوة العلماء الأسبق و والد أستاذنا الكبير مولانا الشيخ
ابن الحسن على الحسينى الندوى وصاحب « نزهة الخواطر و بهجة
المسامع والنواظر » والمؤلفات القيمة الأخرى .

أرجو أن تال هذه الرسالة اهتمام المغنين بتاريخ هذه البلاد
العلمى و الدينى و الفكرى و الأدبى و نشاط أبنائها فى مجالات
القيادة العلمية و السياسية و فى حقل الدعوة الإسلامية ، و نشر
الفكر الإسلامى ، و هى عبارة آلاف الصفحات و مائتين دراسة
طويلات .

و على ذلك فىسرتنا أن نعيد نشر هذه الرسالة ، و نقدسها
إلى أصحاب الدراسات و الاختصاصات ، عسى أن يجدوا فيها زاداً
لروحهم العلمية ، و وقوداً لنشاطهم و عملهم ، والله من وراء القصد
و هو يهدى السبيل .

سعيد الأعظمى

كلية اللغة العربية وآدابها والمعهد العالى للدعوة و الفكر الإسلامى
و رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامى »
بندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

١٥ / ربيع الأول ١٤٠٠ هـ

وتحدث عن حركة ندوة العلماء التى مثلت أروع فصل من
فصول تاريخ الوعى الإسلامى ، و القيادة الإسلامية ، و الفكرة
العلمية فى بحر القرن الرابع عشر الهجرى و أواخر القرن التاسع
عشر الميلادى ، الفترة العصيبة التى عاشها الشعب المسلم فى هذه
البلاد ، وصر فيها بالفجوة الهائلة التى نشأت بين علماء الدين و طبقة
المؤمنين بالثقافة الغربية ، و انقطع الأمل بالجمع بين هذين النوعين
من أهل العلم و الثقافة ، و فى مثل هذه الساعة العصيبة الدقيقة
كانت تحرية ندوة العلماء ، رحمة من الله على أهل هذه البلاد ، وغيثاً
لأرض العلم التى غطتها الجذب و الجفاف ، و هناك مثلت ندوة العلماء
من أهم أدوار هذه البلاد العلمية و الفكرية و أنشأت القنطرة بين
عالمى الدين و المثقفين المعاصرين ، و قامت بالتجربة الفريدة التى
سجلها تاريخ هذه البلاد العالى بمداد من نور .

و مسجد القارىء فى هذه الرسالة إشارات واضحة صريحة لهذه
القصة العلمية و الفكرية التى مثلها رجال هذه البلاد العابرة
و أبنائها النجباء ، فى جميع مجالات الحيوية و النشاط ، و من شاء
التفصيل فليرجع إلى كتاب « الثقافة الإسلامية فى الهند » و « الهند فى
المعهد الإسلامى » للعلامة الشريف عبد الحى الحسينى - رحمه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ،
و حاتم النبيين محمد النبي الأمين ، وآله و أصحابه الطاهرين
الطيبين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، من خلفاء الرسل
وأئمة الدين ، الذين ينفعون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ،
و تأويل الجاهلين .

أما بعد ! فحضرة الرئيس الجليل و السادة الأجل ،
و الضيوف الأعراف !

أحييكم - أصالة مني و نيابة عن زملائي و عن مسلمي
الهند و غلاتهم - بتحية الإسلام و بتحية العلم ، تحية الزملاء
الصفاء للزملاء الكبار ، و تحية الرفاق للرفاق ، فكلنا نسير في
ركب الإسلام السيار . و في موكب العلوم الإسلامية الحافلة ،

إذا فرقت بيننا الأستاذية و التلمذ ، و الأصالة و التطفل ، و القيادة
و التبعية ، فقد جمعنا ظل الإسلام الوارف ، و وسعنا وشيعة
العلم الجامعة ، و كلنا أبناء الإسلام ، و زرع النبوة ، و غرس
القرآن ، و تلاميذ مدرسة الإيمان .

أرحب بكم أيها السادة على أرض قامت عليها تجربة من
نوع فريد في تاريخ الديانات و الحضارات و الثقافات ، نجحت
نجاحاً منقطع النظير ، تجربة دخول دين بواكبه العلم و الحضارة
و منهج خاص للحياة ، لا تربطها به لغة و لا آداب و لا حضارة ،
و لا قومية و لا عنصرية . و لا عادات و لا طبائع ، فبرهنت
هذه التجربة على القوة المودعة في طبيعة الإسلام ، و قدرته على
إشغال المواهب ، و تفنيق القرائح ، و إثارة الدفائن ، و استخدام
الطاقات البشرية في صالح الإنسانية ، و على استجابة الفطرة البشرية
السليمة له ، كأنما كانت منه على موعد و اشتياق ، و معه على
تفاهم و اتفاق . و برهنت كذلك على خصب التربة ، و بكرم
المنبت ، و على أن العلوم الإسلامية تورق و تثمر في كل بيئة
و مناخ ، و قد تكون أكثر ازدهاراً ، و أفضل ثماراً إذا غرست
في أرض بكر ، و تناولها عمل التلويح الحكيم . و « التأبير » السليم ،

وعلى أن الشعور بالغرابة ، والبعد عن مصدر هذه الهداية ، ومنطلق هذه
الفاعلة ، و اليأس من وصول الميرة والمدد ، والشعور بقلّة العده
والشدد والاهتداد على نصر الله وحده ، ثم الاعتماد على الرسالة التي
تعملها هذه الجالية ، و صلاحيتها للبقاء ، ونفعها للانسانية المذبذبة ،
و الشعور بكونها على نفرة بعيدة من نفور الاسلام ، كلفها الله
حراستها و الذود عنها ، يتبر في هذه الجالية قوة تصنع العجائب
و تأتي بالمعجزات ، و تنقلب على كل مقاومة و محاربة ، و مؤامرة
و معاكسة ، و تكذب تجارب الأمم ، و تبطل المنطق المادى الذى
يؤمن بالرياضيات ، و فلسفة الأعداد و العدد . و خضوع النتائج
للقدمات و المسببات الاسباب .

تدخل هذه الجالية في البلاد غربية ، فلا تلبث أن تتخذها
داراً و قراراً ، يحجبها أثارها و تحجبهم ، و يرون فيها الأخ الكريم ،
و الأب الرحيم ، و الأستاذ الشفيق ، و الحاكم الرفيق ، و الصانع
الخالق ، و الاميرى الحازم ، و تنصب على هذه التربة أفضل ما عندهما
من طاقات و كتابات ، و علوم و تجارب ، و تعاليم و آداب ،
و إبداع و أفكار ، و نشاط و حماس ، و قوة عمل و قوة
إرادة ، و حسن تنظيم و قدرة إدارة ، و تلقى الفروسية التركية ،

و قوة الارادة المغولية ، و النخوة الأفغانية ، و الطبيعة الابراتية
المرحة الفلقة . الهائمة بانحال و الخيال ، ورقة المعجم و خفة روحهم
مع جدية العرب و سلامة ذوقهم ، مع طيبة البلاد و أبنائها
الرفيقة الوداعة ، الولوع بالفلسفة و التصوف ، يسيطر على جميع
هذه العناصر و العوامل عقيدة التوحيد النقية ، و تعاليم الشريعة
الاسلامية السمحة ، و تصورها في بوتقتها . فتنشأ من كل ذلك
حضارة جديدة تستحق أن تسمى ، الحضارة الاسلامية الهندية .

و قامت في الهند مدرسة حضارية فكرية عليية ، ذات شخصية
خاصة ، و طابع خاص ، أنجبت عدداً كبيراً من النوابغ ، و أئمة
الفنون الاسلامية ، و أصحاب الابداع و الابتكار ، و الأصالة
العلمية ، كانوا أصحاب مدارس خاصة ، و فاتحى آفاق جديدة ، ليس
في العلوم الدينية كالتفسير و الحديث ، و الفقه و العقائد . لحسب .
بل في علوم اللغة و الآداب العربية . أفر لهم علماء العرب بالادامة
و الزعامة فيها . و عدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هئنه
المعلوم ، و بعضها فريد لا نظير له في المكتبة الاسلامية
العالمية (١) ، و مدت هذه المدرسة الحركة العلمية و التأريفة في

(١) اقرأ للتفصيل كتاب كتاب هذه السطور ، المسنون في الهند ، و لتفصيل *

العالم الاسلامي و العربي التي اصابها الفتور ، و غشيها الامعيا .
التفكرى في بعض الفترات بعد القرن الثامن الهجرى ، بدم جديد
و نشاط جديد ، و أصبحت معقلاً لبعض العلوم الاسلامية
- بعد الزحف التارى - و صارت أكبر مركز لعلم الحديث
الشريف في الزمن الأخير ، و مصدر إشعاع و تصدير بعد ما كانت
مركز استفادة و استيراد ، و نبغ فيها أكبر علماء هذا الفن ،
و ألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع ، و قاد بعض رجالها
في مختلف العهود حركات الاصلاح و التجديد ، و البعث الجديد .
سمع صداها العالى ، و رؤيت آثارها الطيبة المباركة ، في نواحي
العالم الاسلامى البعيدة .

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضارية ،
ثقافية فكرية ، شهدها التاريخ المعاصر . و أن تواجه أضنف صراع
بين المبادئ و العقائد ، و القيم و المفاهيم ، و المعايير و الموازين ،
معركة قامت بين الحضارة الغربية و الفلسفة الغربية ، و بين
الحضارة الاسلامية و الفلسفة الاسلامية ، و صراع بين الفكرة

☆ أكثر كتاب . الثقافة الاسلامية في الهند . للعلامة السيد عبد الحى الحسى ،
طبع المجمع العلمى العربى بدمشق .

[١٢]

الاسلامية ، و الفكرة الغربية بأوسع معانيها و أدقها ، فكانت
معركة حامية دامية ، و صراعاً عنيفاً قاسياً ، فقد واجه الشعب
الهندي المسلم المتخن بالجراح ، المصاب بدهشة الفتح ، الحضارة الغربية
الفتية ، الدافقة بالحوية و النشاط و جهماً لوجه ، لا حاجر بينهما
و لا فجوة . و دام في ربوع الهند الحكم الانجليزى التاثر الموتور
الخانق على هذا الشعب الذى تسلم منه مفاتيح البلاد ، و ذاق من
جرائه الثورة العارمة و الحرب المسعورة قرناً كاملاً ، يحمل الروح
الصليبية مع الروح الاستعمارية ، يرى في الشعب المسلم منافسه
الحقيقى الدائم في كل زمان و مكان ، ويرى في الاسلام مسكراً
يوازى مسكره على طول الخط ، و كل يدعى أنه يقود الحياة
و يصوغ المجتمع ، و يشرع و يسن القوانين ، و يملأ الفراغ
الذى لا بد أن يملأ ، فكان نصيب الشعب المسلم من طيب هذه
المعركة و خسائرها و غراماتها أكثر من نصيب أى شعب آخر .
و كان أكثر حساسية و أكثر حساباً لهذه المعركة من جميع
الشعوب بطبيعة الحال ، و قد سجل التاريخ الامين النصف ، أنه
كان أكثر صموداً ، و أكثر احتفاظاً بشخصيته و معنوياته .
و أكثر تمرداً و استعصاماً على حركة الابداء الدقيقة الشاملة من

[١٣]

أكثر الشعوب الإسلامية التي اكتوت بنار الاستعمار الأجنبي
و وقفت تحت نيره .

هذا عدا حركة التصير ، التي يسميها أصحابها حركة
التبشير ، التي واجهها المسلمون في الهند على إثر استقرار الحكم
الإنجليزي . و قد كادت تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ،
وكانت مسلحة بأقوى الأسلحة ، وأشدّها تأثيراً في الشعب المفتوح
اللبان . و تتمتع بحماية الدولة التي تعتبر هذه البلاد منحة من
السيد المسيح (على نبينا و عليه الصلاة و السلام) و السيطرة
على البلاد ، فرصة سانحة للدعوة إلى الدين المسيحي . ترافق حركة
التصير حملة تشكيكية قوية ، تشكك في كل ما يتصل بالدين الاسلامي
من شريعة و حضارة . و ثقافة و تاريخ ، و قد قاوم علماء
المسلمين كلتا الحركتين بقوة زائدة ، و قدرة فائقة ، و آثاراً وسياسة
الهجوم و النقد العلني على سياسة الدفاع و التماس العذر ، فأنحسرت
موجات الدعوة التبشيرية ، و الحركة التشكيكية ، و تراجعت إلى
الوراء ، و ازداد المسلمون إيماناً وثقة بدينهم ، و اعتزازاً بحضارتهم
و ثقافتهم ، و اعتداداً بشخصيتهم و تاريخهم .

[١٤]

و أم عدد كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية
في كبرى العواصم الأوروبية ، و تخصصوا في علومها العصرية ،
و حذقوا اللغة الإنجليزية كأبنائها ، و كان منهم أدباء ، و كتاب ،
و مؤلفون ، و معلمون ، و إداريون ، شهد ببراعتهم و تفوقهم
علماء الغرب ، و لكن كان منهم أكبر نقدة ، و أقوى تأثيرين على
الفلسفة الغربية المادية ، و الفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية
أحياناً ، و المتحلة الملحدة أحياناً كثيرة ، و تناولوا الحضارة
الغربية ، و الفلسفات الحديثة ، بنقد علمي عميق ، و تشرح جرى
دقيق ، و تهكم لاذع رشيق . كل على حسب أسلوبه الخاص ،
و ظروفه الخاصة ، و صدرت من أقلامهم أقوى كتابات في
عرض الاسلام كدين كامل شامل ، و مهاجمة الحضارة الغربية في
أسلوب ملئي بالثقة و الاعتزاز ، بعيد عن كل تاويل و اعتذار ،
و أنشأوا جبهة علمية قوية أمام دعوة الفكر الغربية و الحضارية ،
شعارها إنكار إمامة الغرب ، و عصمته من كل خطأ ، و براءته
من كل ضعف ، و الافتخار بالاسلام كرسالة إنسانية عالمية
خالدة ، و الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كخاتم الرسل ،
و منير السبل ، و إمام الكل .

[١٥]

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربة جديدة ، و دخل في فترة كبيرة الأهمية ، هي تجربة ممارسة الحياة الحرة الاستقلالية ، التي كان من أول دعواتها ، و من أكبر أبطالها ، و المضحين في سبيلها ، و التي يساهم فيها كأبناء البلاد ، و أفراد الشعب المواطن الماضل ، الحُر الأبى الكريم ، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي ، تنس فيه قوانين جديدة ، و يصاغ فيه المجتمع صوغاً جديداً ، و يوضع للتربية و التعليم نظام جديد ، و تتحكم في حياة البلاد اتجاهات طائفية أحياناً ، عاطفية و أعصابية أخرى ، و المسلمون في كل هذه الظروف أقلية عديدة ، و طائفة متخلقة ، قد حرص الحكم الإنجليزي على إضعافها و تأخيرها في ميدان الحياة ، تحيط بها هالات من روائب الماضي ، و من شبهات هي منها يرثية كل البراءة . و من تصرفات هي منها بعيدة كل البعد ، و كل ذلك يضخم مسؤوليتها ، و يضعف موقفها ، و يخرج مركزها ، و هي تبع كل ذلك مدممة على البقاء في هذه البلاد ، مع الاحتفاظ التام بشعائر دينها ، و خصائص حضارتها و شخصيتها ، لا تتخلى عن شئ من ذلك . فكانت محنة ذكاء و محنة وفاء ، محنة عقيدة جازمة ، و محنة و طنة صادقة ، محنة الشخصية القوية العبقريّة ، و محنة

[١٦]

الروح الإيجابية البناءة ، محنة يقل نظيرها في التاريخ الإسلامي لتقديم ، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك . و يذكر الحديث عنه في كتب الفقه و الفتاوى ، و متى وجد ستون مليوناً أو أكثر . من المسلمين في أكثرية غير المسلمين ، في بلد يحكمه البرلمان ، و يسيطر عليه الدستور ، و اتخذ العلانية له شعاراً ؟ فلا سبيل إذاً في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الإسلام و الحقائق الراهنة . إلا الأصول الإسلامية الحكيمة ، الخالدة العالمية ، و الذكاء الأملئ ، و الشخصية القوية ، و العزم الصادق ، و الإيمان الراسخ ، و إثارة حياة الشرف و الكرامة على حياة اللؤم و المهانة . و الاستشراف لتبوء مكان القيادة الخلفيه الذي لا يزال منصبها شاغراً ، و الظهور على منصة هذه البلاد و مسرحها ، كداع مخلص رباني ، و قائد خلق إنساني ، مجرد عن كل شهوة و أنانية . و أغراض فردية و جماعية ، يتقد هذه البلاد من الهوة السحيقة العميقة من الانحطاط الخلق . و تقديس المسادة و التهاكك عليها و الانتهازية . و نسيان فاطر السكون ، و ذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هذا الشعب من مستواه الشعبي العساق إلى مستوى الرائد . و القائد الرفيع السامق .

[١٧]

وقد عرف الشعب المسلم الهندي في تاريخه الطويل - ولا أذكر على الله أحداً، إنما هو تحديث بالنعمة ، وتقرير الواقع التاريخي - بقوة عاطفته الدينية ، ووجه العميق ، المتغلغل في الأحشاء ، لرسول الله ﷺ ، وارتباطه بمجد الاسلام و مركزه . و ذلك الذي حماه من أن يذوب و يفقد شخصيته ، كما كان الشأن مع الشعوب التي دخلت في هذه البلاد في فترات مختلفة ، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الاسلام والمسلمين في الزمن الأخير ، قد تبني قضية الدفاع عن الخلافة العثمانية بحماس منقطع النظير ، و لا تزال حركة الخلافة ، التي كان لها فضل كبير في إثارة الوعي السياسي والوطني في شبه القارة الهندية ، كبرى حركات الهند الشعبية ، و موضع دهشة المستعمرين ، و موضوع المؤرخين و المؤلفين ، و كذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين ، و المسجد الأقصى المبارك و كان مرعوب الحس ، رقيق الشعور ، شديد الانفعالية في كل ما يعلق المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها .

و قد تجلت قوة عاطفته الاسلامية ، و شدة تمسكه بالدين ، و تعاليمه و ثقافته ، في شبكة المدارس الدينية والكتاتيب الاسلامية ، الدقيقة الواسعة التي قلما خلت منها قرية كبيرة فضلاً عن المسدن

و الأعمار ، و قد أسسها المسلمون في طول الهند و عرضها ، بعد استقرار الحكم الانجليزي ، و تملكه لزام التربية و التعليم في القطر الهندي ، و هي تتجاوز المئات ، و تبلغ إلى الألوف ، ومنها عدد كبير يسمى بالمدارس العربية لغايتها الزائدة بالعلوم الاسلامية التي ألقت كتبها في اللغة العربية ، و عنايتها بالقرآن و الحديث اللذين هما بلغة العرب ، و هي تعنى غالباً بتدريس الصحاح الستة من أولها إلى آخرها ، و بتدريس الجامع الصحيح البخاري بصفة خاصة ، و تدريس صحيح مسلم ، و جامع الترمذي ، و سنن أبي داود بصفة عامة ، و تكاد تكون هذه المدارس كلها شعبية يمولها و يكفلها الشعب المسلم ، و يعتبر ذلك سعادة وعبادة ، و يتنافس فيه ، و ذلك سر وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحترمين ، و الدعاة المتطوعين ، و المعلمين المخلصين في كل زمان ، الذين يعيشون على الكفاف ، و يبلغون من العيش يتلقون بها في نشر العلم ، و الدعوة إلى الله ، و تعليم الناس دينهم .

و من سمات العلماء و المتخرجين في هذه المدارس الدينية البارزة ، أنهم كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد و إجلاء المستعمرين ، و في مركز القيادة في هذه الحركة الشعبية القوية ،

و منهم انبثقت فكرة النضال ضد الاحتلال في الحقيقة ، و قد قاد
كثير منهم حركات المقاومة الفعالة و الثورات المسلحة بمقدرة
و شجاعة ، فمنهم من قتل شهيداً ، و منهم من شق ، و منهم من
نقى إلى جزائر اندمان أو إلى منقى جزيرة مالطة ، و منهم من
عصى شطراً من حياته في السجون و المعتقلات في داخل البلاد ،
و تاريخ حركة التحرير و الاستقلال مقترن بتاريخ العلماء و الشخصيات
الدينية في الهند متداخلاً فيه ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .
و من سماتهم البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الانشائية في
شبه القارة الهندية ، و كانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام
عليها قصر الأدب الرفيع و النثر الفنى بعد ثورة ١٨٥٧ ، و كان
كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة ، لا يزال لها أنصار
و أتباع و مقلدون ، و كان كثير منهم رائد نشاط جديد في
الإنشاء و التحرير و النقد و تاريخ الأدب و الشعر ، و لا تزال
مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل و العمدة في هذا الموضوع ، فلم يكن
في الهند ذلك الفساح التمسك بين علوم الدين و الأدب العصري
و لغة البلاد ، و لم تكن تلك العجوة التي وقعت في بعض البلاد
بين علماء الدين و الشاكرين بالأدب و الشعر ، و الهاميين بهما ،

[٢٠]

العجوة التي جنت على الدين و الأدب في وقت واحد .
و أصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفياً بالاسلام ، يستمد
قوته و سموه من منابع الاسلام الأصيلة . كالسكتاب و السنة ،
وسلوك الرعيل الأول من المسلمين ، و جهاده و وفائه ، و بطولاته ،
و سيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الاسلام ، و أساغوا
نتائجهم ، و استقاموا على الطريقة ، قد ربط عقيدته و مصيره .
و سلوكه بالاسلام ، و لم يربطه بالمسلمين ، عرباً كانوا أو عجماء ،
فليس « إمة » يقول إن آمن الناس آمنا ، وإن كفرنا ، و إن استقاموا استقمنا ، و إن انحرفوا انحرفنا ، و لا يشترط
لوفائه للاسلام ، و فاء شعب من الشعوب الاسلامية للاسلام ، بل
يرى ذلك لزماً عليه و شكراً لنعمة الايمان التي لا نعمة أعظم
منها ، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الاسلامية ، معتزلاً
بحضارة الاسلام و فلسفته ، متمسكاً بالدين الاسلامي كدين كامل
يقود الحياة كلها و الأزمنة و المجتمعات كلها ، حين تؤمن شعوب
كثيرة بقومياتها و حضاراتها البائدة ، و فلسفات دنيئة و حديثة ،
منافية للاسلام أو منافسة له ، و يدعوا له جاهداً مخلصاً أن يلهم الثبات
على المبادئ ، و القيم ، و المثل العليا ، مهما كانت قيمته في الحياة

[٢١]

المادية و التمرس المواتية ، حتى يستطيع أن يخاطب ربه وينشده .

ثبتك تملو و الحياة مريرة

و ليتك ترضى و الأنام غضاب

و ليت الذى يبنى و بينك عامر

و يبنى و بين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين

و كل الذى فوق التراب تراب

لذلك كله — أيها السادة — كانت هذه الأرض جديرة كل الجدارة بأن تلقى عليها هذه الصفرة المختارة ، من علماء الاسلام ، و قادة الفكر ، و أقطاب التربية و التعليم ، ليظلموا على مدى السجاج الذى حقه هذا الشعب المحاط بالحنن و المشكلات — التى قلنا أحيط بها شعب من الشعوب الاسلامية — فى الاحتفاظ بهنصيته ، و أداء رسالته ، و إثبات جدارته ، و يظلموا على المسافة التى لا تزال أمامه ، و هو يطلب من إخوانه ، فى العالم الاسلامى و العربى ، التوجيه الرشيد ، و الراى السديد .

و أرحب بكم ثانية فى مدينة لكهنؤ التى كانت تلو دهل
— عاصمة القطر الهندى — فى خصب التربة ، و حضارة العلم و العلماء ،

[٢٢]

و قد آلت إليها زعامة الحضارة ، و الآداب ، و اللغة ، و انتهت إليها رئاسة التدريس و التأليف فى العهد الأخير ، و نبغ فيها علماء و مؤلفون فاقوا أقرانهم فى التفنن فى العلوم و الآداب ، و كثرة التأليف و قوة التدريس ، و انفجرت منها عبون العلم فأروت القريب و البعيد ، و فيها بلغ منهاج الدرس القديم طوره الأخير من التقيح و التهذيب ، و الزيادة و التكميل ، فسمى • الدرس النظامى • ، و سيطر على الأوساط العلمية التعليمية فى شبه القارة الهندية ، و فى أفغانستان و تركستان . و خدم فيها القرآن حفظاً و تجويداً ، و نشرأ و تمليماً ، فى العهد الأخير ، خدمة لا يوجد لها نظير فى كثير من المدن الاسلامية .

• وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم •
و أرحب بكم ثالثة — أيها السادة — فى هذه المؤسسة التى تمثل فصلاً من أروع فصول تاريخ الوعى الاسلامى . و القيادة من الاسلامية ، و الفكرة العلمية ، فهنا تجسم الشعور بالواقع المرير الذى كان يعيشه المسلمون — ليس فى شبه القارة الهندية فحسب بل فى العالم الاسلامى — فى فجر القرن الرابع عشر الهجرى ، و أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، من تمزق الشمل ، و تشتت الفكر ،

[٢٣]

وضعف الثقة بصلاحية الرسالة التي أكرمهم الله بها لمسيرة الزمن
فضلا عن قيادة الركب البشري ، و الحسبة على العالم ، وصلاحية
شريعهم السماوية لحل المعضلات ، و الارشاد في النوازل و القضايا
الجديدة ، و صلاحية علومهم الاسلامية للبقاء و الازدهار ، والنمو
و التوسع ، و توزع بين طبقتين متناكسرتين متنافرتين أحيانا ،
ومتنافستين ومتناحرتين أحيانا كثيرة ، طبقة علماء الدين المتخرجين
في المدارس الدينية على النمط القديم ، و طبقة المثقفين بالثقافة
الغربية ، المتعلمين في الكليات و الجامعات المدنية ، لا تزال الجفوة
بينهما تشتد و تتجدد ، و لا تزال الفجوة بينهما تتسع و تعمق على
مر الأيام ، و القنطرة التي تصل بينهما مفقودة أو مكسورة ،
و ما أشق الطبقتين من أمة إذا احتاجتا في اللقاء و التعاون إلى
جسر يصل بينهما ، أو ترجان يترجم لهما ، و ما أشق الأمة بهما ،
و توزع كذلك بين الطوائف الاسلامية ، و المذاهب الفقهية ،
ينظر كل منها إلى الآخر نظرة ازدراء و احتقار ، ونظرة خوف
و إشفاق ، و المناظرات و المطارحات بينها قائمة على قدم و ساق ،
قد تتحول إلى مضاربات و إهانات ، و محابكات و مخاصمات ، و قد
تجر إلى تضليل و تفسيق ، بل إلى تكفير أحيانا كثيرة ، و المناهج

التراسية قد ختم عليها بالختم الأخير لا تقبل زيادة و لا نقصا ،
و قد غشيت الأوساط العلمية غاشية من الغزلة الفكرية ، فلا تفتح
نافذة على ماجد في العالم الحديث من علوم و أفكار ، و بحوث
و دراسات ، و لا تتصل بالحياة السريعة الصاخبة إلا عن طريق
السياسة أو التبعية ، و هنا أفلت منها زمام القيادة و التوجيه ،
و الاشراف على المجتمع الاسلامي ، و الوصاية عليه ، و صيانه
من الغزوات الفكرية و الغارات الصليبية ، و الانحرافات الخلقية ،
و وقعت الطبقات المثقفة تحت رحمة دعاة التغريب ، و الردة الفكرية
و الحضارية من المسلمين القوميين و غيرهم .

و في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، و في هذا الجو الغائم
القائم ، التقت (سنة ١٣١١ هـ الموافق ١٨٩٢ م) مجموعة من أهل
الفراسة الایمانية ، و الشعور المرهف ، و التألم بواقع المسلمين
و مستقبل علماء الدين و العلوم الاسلامية ، بل بمستقبل هذا الدين
في هذه القارة التي سقبت بأزكى دماء المسلمين ، و غذبت بأذكى
عقول علماء الدين ، و سايرت ركب العلم و الحضارة الاسلامية ،
بل وقادته أحيانا ، و التقى أهل العقول بأهل القلوب . و كبار
علماء الدين بخيار المثقفين المدنيين ، و قتها المذموب الحنفي بزعماء

أهل الحديث و الأثر ، و الزهاد المتبتلون الذين آثروا العزلة
و عكفوا على العبادة ، بوجهاء البلد و أعيانه ، و كبار الحقوقيين
و رجال التعليم ، فأسسوا جمعية سموها « ندوة العلماء » لأنها
نبعت من أفكارهم ، و تأسست على دعوتهم . و هم الموجهون لها
و المشرقون عليها ، و بدأت كفاحها في جمع شمل المسلمين ، و توحيد
كلماتهم ، و تنسيق جهودهم في إنهاض المسلمين ، و محاربة الأخلاق
الفاسدة ، و التقاليد الجاهلية ، و العادات الفجحة المضرة . و جمع
العلماء من مختلف المذاهب الفقهية ، و الطوائف الإسلامية السنية
على منصة واحدة للاهتمام بأمر المسلمين ، و إصلاح مناهج التعليم
الديني و تطويرها و تكيفها مع الزمن ، في نطاق المبادئ الإسلامية و مقاصد
الشريعة الإسلامية و رفع مستوى العلماء و توسيع آفاق فكرهم و معلوماتهم ،
و إعداد العلماء الذين يتمتعون بثقة كلتا الطبقتين - القديمة والحديثة -
و تقديرهما ، و يأخذون مكانهم الطبيعي في قيادة المسلمين الدينية ،
و الفكرية و العلمية الذي فقدوه من زمان بضمفهم في العلوم
الدنيوية ، و بعدهم عن الحياة .

و نادوا بإعطاء القرآن الكريم - ممتناً و تفسيراً - حقه من
العناية و الدراسة و التمييز بين العلوم الآلية و العالية ، و الوسائل

[٢٩]

و المقاصد . و تقديم كتب المتقدمين المنذوقين للدين و العلم
أصالة على كتب المتأخرين ، و العناية بتعليم العلم أكثر من العناية
بتدريس الكتاب . و نادوا بإحلال اللغة العربية و آدابها محلها
اللائق في المناهج الدراسية . و المقررات المدرسية ، ففسد كانت
بقيت منتهى الضعف في الزمن الأخير ، و وضعت في هامش
شاهج و النشاط العلمي التعليمي ، و أعطي اللغة العربية كلغة حية راقية .
دافعة بالحياة و القوة . مرنة تسير متطلبات العصر . و حاجة
الذخيرة و الدعاة . حتى يستطيع أبناء هذه الدار أن يتذوقوا جمال
القرآن و إعجازها ، و فصاحة الحديث النبوي و قوته ، و يخاطبوا
أبناء العرب في لغتهم . و أساليب كلامهم . و يقاوموا الفتن
العصرية و الدعوات المضلّة . و كانت فكرة سابقة للزمن الذي
لم تحدث فيه وسائل الاتصال . و لم تسنج فيه فرص اللقاء التي
حدثت في هذه العقود الأخيرة . حين نالت البلاد الإسلامية
و العربية الاستقلال ، و عمت الاجتماعات و اللقاءات على الصعيد
الدولي . فكان كل ذلك دليلاً على بعد نظر هؤلاء العلماء ، و دعوا
إلى ضم بعض العلوم الحديثة النافعة التي لا يسع العالم جاهلها
و دراسة اللغة الرسمية السائدة إلى مناهج التعليم .

و أسسوا لتحقيق هذه المطالب و الغايات مدرسة نموذجية

[٢٧]

سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٩ م في مدينة لكتون ، سموها دارالعلوم ندوة العلماء . و توسعت و اشتهرت حتى عطي اسمها في كثير من الأحيان اسم المؤسسة الأم ومصدرها ، و تقرأ قصة هذه الجمعية و ما مرت به من أدوار و مراحل ، و قصة هذه الدار التي نلتق في رحابها وما قطعت من أشواط مشروحة مفصلة في الكتب و الرسائل التي نشرتها ندوة العلماء و أبناء دار العلوم التابعة لها و ضمنها مكنتات الهند و دور كتبها .

في رحاب هذه الدار العلمية ، وفي مركز هذه المؤسسة التي هي مدرسة فكرية شاملة ، و حركة إصلاحية توجيهية ، نرحب بكم أيها السادة ، ونحييكم بتحية الاسلام والعلم في هذا الملتقى الكريم . و المشهد العظيم ، الذي سنظل أختياره و مشاهدته تذكروا وتشكروا ، و نقل و تروى ، و الذي يمثل بحول الله تعالى ، و توفيقه العالم الاسلامي الواسع هذا العليل الجامع الرائع الذي قلنا شهدته هذه البلاد في الماضي القريب .

و سيشارك في رواية هذه القصة الجميلة الرائعة و نقلها إلى الأجيال القادمة ، رواة صادقون من الأحياء ، و شهود عادلون من الأعضاء . فالعين عن قررة ، والكف عن صلة

والقاب عن جابر، والسمع عن حسن

